

"جان جينيه" العاشق الأسير للتمرد وأقصى مداه

إدريس علوش

"أرجو أن لا يتغير العالم لكي يمكنني أن أفد دائما ضده"، هو الشعار الذي اختاره "جان جينيه"، اختاره عن وعي- وعي نقدي- ليجابه به المستقبل ويتحدى ماضيه الصعب والمرير، ماضيه الأليم الذي قاده إلى السجون وهو لم يتجاوز بعد سن السادسة عشر، وفي السجن الذي دخله أكثر من مرة، استوعب شراسة درس الحياة، وعاش فيه حيوات متعددة، وتمرد على المجتمع وضوابطه مادام هذا الأخير لم يأخذ بيده، ولم يمنحه أي نوع من الحنان عدا حنان أمه التي سيدين لها به ما تبقى له من عمره، لم يعرف "جان جينيه" ما الحنان الأبوي، أو حتى المجتمعي..؟

قوة "جان جينيه" كانت تكمن في قوة ما أبدعه من نصوص وكتب وأدبيات، ولأن الكتابة كانت هي الوسيلة الوحيدة لاثبات الذات والتعبير عن رفضه لسلبية المجتمع الذي رفضه في طفولته وبداية مراهقته، عمل "جان جينيه" كل ما في وسعه ليتقن لغته الفرنسية وامتلاك ناصيتها القصوى، وبالمتابعة نجح وبامتياز في ذلك لدرجة أنه تفوق على رموزها الكبار ومثقفها، وهذا ما جعل "جان كوكتو" و"جان بول سارتر" و"أندري بروتون" رائد السورالية الفرنسية وكتاباً آخرين في صدارة المدافعين عنه وعن أدبه وإبداعه الذي لا يضاهاى سواء أكان مسرحاً أو سرداً أو شعراً، ولأجل ذلك، أي لأجل العمق النصي القلق، واستثنائية الشكل والأسلوب المتضمنة في كتب هذا الأخير،

كتب عنه "جان بول سارتر" كتابا ضخما عنونه ب"القديس جان جينيه"، رغم أن "جان جينيه" نفسه لم يكثر ولم يأبه كثيرا لهذا الكتاب رغم أهميته.

وعن اللغة الفرنسية ذاتها يقول "جان جينيه" التي هي بمحصلة القضايا لغة سيادة وسلطة الدولة التي أنجبته وتركته على رصيف محك الحياة وقساوتها: "كان علي أن أفسد و أقود هذه اللغة إلى الإنحراف وأسخر منها". ويضيف ليؤكد نصره وانتصاره "انتصاري لفظي وأنا مدين به إلى فخامة التعبير".

*

ولد جان جينيه في العاشر من كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩١٠ في الساعة ١٩,٤٥ في مشفى التوليد المعروف باسم "تارينيه"، ٨٩ شارع أساس، في باريس، أمه "كامي غابرييل جينيه"، في الحادية والعشرين من العمر، عازبة، وصرحت بأنها تمارس مهنة "مربية"، أما والده فمجهول. هذا ما كتبه "ألبيير ديشي" في سيرة حياة "جان جينيه" وهي سيرة مكثفة بالأحداث والتراكم والدلالات، ويضيف "ألبيير ديتشي": "بدأ سرقاته الصغيرة، مع أنه كان عضوا في فرقة المنشدين في الكنيسة، بالإضافة إلى قيامه على خدمة المذبح أثناء القداس. كان يسرق الكتب والأقلام والحلوى.. وفي سنة ١٩٤١ طارده خياط في الشارع، كان قد سرق منه قطعة قماش من الحرير، وعند وصوله إلى كنيسة "نوتردام" في باريس قبض عليه صاحب مكتبة كان "جان جينيه" قد اختلس منها مجموعة أعمال "بروست"، وحكم عليه بثلاثة أشهر ويوم واحد".

ولأنه سرق الطبعة النادرة لديوان "فرلين"، "أعياد مستهترة" حكم عليه بالسجن المؤبد إلا أن "جان كوكتو" سيتزعم حملة عريضة ضد هذا الحكم المستبد، وسينجح في مسعاه، وينقذه من ذلك المصير القاسي. "جان كوكتو" كان معجبا بكتابات "جان جينيه" وأول ما أعجب به قصيدة هذا الأخير "المحكوم بالإعدام"، التي كتبها وهو نزيل أحد السجون الفرنسية، وله يعود الفضل في نشر أول كتب "جان جينيه".

الكاتب السوري مالك سليمان في إعداده لكتاب "جان جينيه"، "شعرية التمرد"، الصادر عن دار كنعان بدمشق، سنة ١٩٩٨ يقول:

"أن تقترب من "جان جينيه" يعني، ببساطة، أن تضع إحداثياتك الشخصية، وتغتسل من الأدران

المتراكمة عبر قرون من التقنين والتحنيط والمفاهيم التقليدية التي تلجم الحياة، وتمنع تفتح الوعي. أن تقترب من "جان جينيه" يعني أن تسير على سلك رفيع مشدود. وكلما اقتربت منه أكثر استدق السلك وازداد توترا وخطورة. وفي الطريق إليه تفقد اتجاهاتك المألوفة ولا تدركه إلا وأنت عار ومبعثر. وهذا ما حدث للكثيرين الذين اغوتهم رمال "جان جينيه" المتحركة التي تمور في عوالمه المختلفة والمثيرة: فمن لاعب السيرك الشاب عبد الله الذي انتهت مغامرته مع "جان جينيه" بالانتحار، إلى المغربي محمد القطراني الذي اختل عامله مع رحيل جان جينيه وتعرض عقله لعطب دائم وبقي حارسا مهووسا لقبر "جان جينيه" في العرائش، إلى الروائي الأمريكي "إدموند وايت" الذي اعترف أن كتابته لسيرة حياة "جان جينيه" قد حولته إلى متشرد يهيم في العالم وصولا إلى دمشق والعرائش بحثا عن طيف جان جينيه".

محمد شكري الذي كتب كتابا أسماه "جان جينيه في طنجة" يروي أن الكثيرين من أصدقائه حذروه من الوقوع في فخاخ اللعنة التي تعترى وتصيب "جان جينيه"، دون أن تستثني محيط مريديه، إلا أن محمد شكري استهوته المغامرة، وألقى عنوة بظلاله غير آبه بوصايا الآخرين ليحتكم إلى روح تجربته للتعرف على هذا الكاتب الكبير، وعن هذه التجربة يقول محمد شكري:

"كنت في مقهى "سنترال" مع "جيرار بيتي"، فجأة قال: أنظر ها هو ذا "جان جينيه". كان يمشي ببطء يدها في جيبي سرواله، وملابسه مهملة وسخة، ينظر باستمرار نحو سطيحة مقهى "سنترال". توقف، التفت إلى مقهى "فوينتس" ثم اتجه إلى مقهى "طنجة" قلت ل "جيرار": أريد أن أعرفه. قال بانفعال: من الأحسن ألا تفعل، إنه يتضايق من معرفة الناس بسهولة. الانسجام معه صعب. هكذا سمعت عنه.

أنا نفسي يقول محمد شكري كنت قد سمعت عنه أشياء كثيرة. كان قد قال لي مسؤول في المركز الثقافي: "أن من يقترب من جان جينيه عليه أن يتوقع إما صفة أو قبة على وجهه".

محمد شكري نجح في نسج علاقة مع "جان جينيه" رغم صعوبة مزاج هذا الأخير الذي كان ينأى بنفسه عن التواصل مع المثقفين، والكاتب والمبدعين إلا في حدود ضيقة، وقد كانت له فرص عديدة في التواصل مع هذا الأخير، وهذا ما حفزه لكتابة كتاب "جان جينيه في طنجة".

جان جينيه الذي اختار أن يعيش جانبا من حياته في العرائش باحثا عن سكينته تبعده عن جو

المشاحنات الثقافية ومتاهات الكتاب ورهانهم على تناقضات المرحلة، قريبا من صديقه محمد القطراني، غير منته وبالمرة لمجده الأديبي وبالصورة التي رسمتها الثقافة العالمية عن شخصه.

في رسالته ل"أندري جيد" سنة ١٩٣٣، والتي نشرت سنة ١٩٣٥، يكتب جان جينيه-مقطعاً من رسالة:- "إن تجربتي القليلة تدفعني إلى الاعتقاد بوجود تأثير يغلب على الثقافة الحالية لنوع من الأدب-من أين جاء؟ أريد أن أسميه "أدب اللاوعي"، مع أنني لا أقيم مع عالم المثقفين إلا أدنى العلاقات، أعتقد أن الثقافة موجهة باتجاه ما" واصفا بهذا رأيه في الثقافة وعلاقته بالمثقفين.

في موزاة ذلك عاش "جان جينيه" تحت ظلال الحركات الثورية والمتمردة مع "الفهود السود"، ومع الفلسطينيين الذين ناصر عدالة قضيتهم، ومع العمال المغاربة المهاجرين في فرنسا الذين ناضل إلى جانبهم من أجل انتزاع حقوقهم المشروعة.

سافر "جان جينيه" أول مرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية في آب/أغسطس سنة ١٩٦٨، ساعتها خاطر ودخل التراب الأمريكي بلا تأشيرة، وهو يدرك خطورة هذا الموقف وما يترتب عنه من الناحية القانونية من زجر، حيث حضر مؤتمر الحزب الديمقراطي في "شيكاغو" التي قال عنها: "بدت لي شيكاغو، عندما كنت أراها من أوروبا، مدينة الحكايات العجيبة والأخطار الشديدة بسبب العصابات الاجرامية فيها، وعندما ذهبت إليها وجدتها خطرة جدا بسبب رجال الشرطة فيها، بيزاتهم الزرقاء الفاتحة الشبيهة بتلك التي ترتديها راقصات "كازينو باريس". وفي شيكاغو شارك مع "وليام بوروز" و "الان غينزبرغ" في التظاهرات العنيفة التي قام بها "الهيبيون" والفهود السود" ضد الحرب في فيتنام".

وعن العنف والعنف المضاد يقول "جان جينيه": "عندما يتعلق الأمر بالعنف، يجب علينا التمييز والاختيار. ولذلك، أنا ضد العنف الذي يمارسه الأمريكيون في فيتنام، ولكنني مع العنف عندما يمارسه الفيتناميون ضد الأمريكيين. كما أنني ضد عنف رجال الشرطة ومع عنف السود في شيكاغو".

في سنة ١٩٢٨ التحق "جان جينيه" بالشام إبان الإنتداب الفرنسي في إطار الخدمة العسكرية الإجبارية، وحاول أن يتعلم اللغة العربية، وذاكرته ظلت محملة بما عايشه هناك من تفاصيل في نهاية عشرينات القرن الماضي. وعاد إليها ولأجل أسباب مغايرة -هذه المرة- ومختلفة وهي مناصرة عدالة القضية الفلسطينية والتعرف على الحراك الثوري الذي يقوده فدائيو الفصائل الفلسطينية

وكان ذلك سنة ١٩٧٠، وحدث أن تسلل إلى داخل الأراضي الفلسطينية برفقة مجموعة من الفدائيين لم يفش السر لأحد وإلى غاية موته، لأي فصيل من مكونات الثورة الفلسطينية كانوا ينتمون، وفي سنة ١٩٨٢ كتب نصه الشهير أربع ساعات في شاتيلو وهو شهادة حية عن همجية ما اقترفه الكيان الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني وعن الفلسطينيين واستنادا الى النص ذاته يقول "جان جينيه":

"بالنسبة لي، أن تكون كلمة "فلسطينيون" موضوعة في العنوان، أو في صلب مقالة، أو على منشور سري فانها تستحضر في ذهني مباشرة الفدائيين في مكان معين هو :الأردن، وخلال فترة يمكن تحديدها بسهولة، تشرين ثاني /نوفمبر- كانون الاول/ديسمبر من العام ١٩٧٠، وكانون ثاني / يناير، وشباط/فبراير، وآذار/مارس، ونيسان/أبريل من العام١٩٧١. ففي هذه الفترة وفي ذلك المكان، عرفت الثورة الفلسطينية". وهو هنا يتحدث عن المد الثوري الذي شاهده الثورة الفلسطينية، والعمليات الشهيرة التي قامت بها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة وديع حداد وجورج حبش.

توفي جان جينيه في العاشر من نيسان/ أبريل سنة ١٩٨٦ في غرفة صغيرة في أحد الفنادق قرب ميدان ايطاليا،١٩ شارع "ستيفن بيشوت" في باريس. ودفن في المقبرة الاسبانية القديمة بالعرائش، يوم ١١ نيسان/أبريل من نفس السنة .

وبوفاته تتوقف رحلة كاتب عظيم لم يكن يشبه الكتاب الآخرين في شيء، فهو كاتب استثنائي فيما أبدعه من نصوص، وما راكمه من حيوات مفعمة بالمغامرة والمخاطرة: كل رأسماله ليعلن للعالم: "كم أنا مختلف".